دلالات لفظ

-- يسألونك في القرآن الكريم-

أ.عبد الغني بن شعبان

جامعة منتوري- قسنطينة- الجزائر

تمهيد:

منذ وجود الإنسان على هذه الأرض وهو يتساءل عن أصله وطبيعته، يتساءل عن علاقته بنفسه علاقته بغيره وعلاقته بما حوله في عالم المادة طبيعة وكونا، فكانت بذلك حياته عبارة عن مجموعة من التساؤلات الغاية منها إشباع رغباته في المعرفة.

ولكلّ مجتمع تساؤلاته وكانت تساؤلاتهم تلك موجّهة للعارفين ببعض خبايا هذا الكون من أنبياء وعلماء حكماء ممّن حصّلوا وتلقّوا علمهم بالتأمّل والوحي الإلهي فنجد مثلا أنّ أغلب الأنبياء تساءلوا وسُئلوا كما هو الحال مع سيّدنا إبراهيم عليه السلام في تساؤلاته التي أراد من خلالها التوصّل إلى معرفة خالقه وخالق هذا الكون وعظمته {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ*فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لآ أُحِبُّ ٱلآفِلِينَ*فَلَمَّآ رَأَى ٱلْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبي لأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّالِّينَ*فَلَماَّ رَأَى ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يٰقَوْمِ إِنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ*إِنِي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضَ حَنِيفاً وَمَآ أَنَاْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ}[1] أو مع سيّدنا موسى عليه السلام في حكايته ورحلته مع العبد الصالح الذي آتاه الله العلم فأراد أن يتعلّم منه كيفية التعامل مع المواقف الاجتماعية حيث{قَالَ لَهُ مُوسَىٰ

---

(1) سورة الأنعام:75/76/77/78/79.

هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا}[1] أو سيّدنا يوسف عليه السلام في تفسيره لأحلام من كانوا معه لمّا {وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ*قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ}[2] والأمثلة عديدة.

وكانت الغاية من أغلبية تلك الأسئلة هي طلب المعرفة أي البحث عن أحسن السبل التي يتبعها المتسائلون لكي يكون سلوكهم في تعاملاتهم الدنيوية على أكمل وجه لكن من الغريب أن يكون الغرض من بعض التساؤلات هو محاولة التعجيز أو بالأحرى إظهار عجز الموجّه إليهم التساؤل بغية الاستهزاء بهم والسخرية منهم والحطّ من قيمتهم وإبعاد صفات المعرفة والحكمة عنهم كما جرى الحال مع الرسول عليه الصلاة والسلام ومع باقي الأنبياء والرسل عليهم السلام حيث سُئلوا من طرف بعض الناس الذين يظنّون أنفسهم أهل علم وحكمة ومعرفة ولا يستطيع أحد مضاهاتهم في علمهم هذا ومعرفتهم ولذلك فهم يعملون دائما على احتقار كلّ من يظهر لهم تفوّقه العقلي والنفسي والأخلاقي ولو كان على حق انطلاقا من مفهوم التعصّب في الرأي وغلبة الفكر لانتمائهم أو انحدارهم من سلالات متفوّقة فطريا بحسب ظنّهم[3].

---

(1) سورة الكهف66.

(2) سورة يوسف36/ 37.

(3) ينظر فيما يخص التعصّب في الرأي: عالم المعرفة العدد 137 (الاتجاهات التعصّبية) د.معتزّ سيّد عبد الله-المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت 1989.وكتاب التعصّب-أندريه هاينال/ميكلوس مولنار/جيرا ردي بوميج ترجمة:د.خليل أحمد خليل-دار الساقي لندن الطبعة الأولى 1990.

في هذا البحث المختصر إشارة إلى تلك التساؤلات المتعلّقة بالرّسول عليه الصلاة والسّلام والتي طرحها عليه من حوله بغية الاستفسار أو التعجيز وهي تساؤلات عديدة ولكي أكون أكثر دقّة، أردت الرّجوع إلى الآيات التي جاء فيها التساؤل بلفظ {يسألونك} وذلك انطلاقا من إحصاء آيات القرآن الكريم التي ورد فيها هذا اللّفظ مع مناقشة قراءات المفسّرين عليها فكانت التساؤلات في مجالات مختلفة منها ما له علاقة بالمواقيت والأزمنة وما يحدث فيها كالسؤال عن الأهلّة وعن الشهر الحرام وعن الساعة ومنها ما له علاقة بالإنسان وأغذيته وأشربته ما هو حلّ منها وما هو محرّم كالسّؤال عن الخمر والميسر ومواضيع أخرى سيتمّ التطرّق إليها آية بآية ويمكن إجمال كلّ تلك الآيات في الجدول الآتي:

يسألونك	عَنْ	الْجِبَالِ	قُلْ	يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا
		الْأَهِلَّةِ		هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
		الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ		قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ
		الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ		فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا
		الْيَتَامَى		إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
		الْمَحِيضِ		هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ
		السَّاعَةِ أَيَّانَ		إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا

		مُرْسَاهَا		إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
		الْأَنْفَالِ		الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ
		الرُّوحِ		الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا
		ذِي الْقَرْنَيْنِ		سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا
	مَاذَا	يُنْفِقُونَ		مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ
		أُحِلَّ لَهُمْ		أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ

والآيات بحسب ورودها وترتيبها في سور القرآن الكريم هي كالآتي:

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (البقرة189)

بالرجوع إلى آراء المفسّرين فهذا السّؤال هو من الأسئلة التي طرحها النّاس بإيعاز من اليهود على الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، ذلك لحيرتهم في سبب اختلاف أحوال الأهلّة بظهورها وزيادتها إلى درجة تمامها واستوائها ثمّ تراجع حجمها بنقصانها واختفائها، وما الفرق بينها وبين الشمس التي هي دائمة أبدا على حال واحدة لا تتغير فكانت هذه الآية جوابا لهم فيما سألوا عنه، ويرى المفسّرون دائما بأنّ هذه الآية جاءت توضيحا للمسلمين لمعرفة أيام صومهم وإفطارهم ومناسكهم وحجهم ولعدّة نسائهم وأوقات حلّ ديونهم وانقضاء مدة إيجارهم.

أمّا عن الجزء الثاني من الآية والذي يبتدئ من {وَلَيْسَ الْبِرُّ} فقالوا بأنّها نزلت في قوم كانوا إذا حجوا وأحرموا ورجعوا لم يدخلوا بيوتهم من قبل أبوابها بل من ظهورها باتخاذهم نقبا فيه ويزعمون ذلك برا، وفي رواية أخرى أنّه كان الرجل في الجاهلية إذا هم بشيء فتعسّر عليه لم يدخل بيته من بابه بل يأتيه من خلفه ويبقى على هذه الحالة حولاً كاملاً، فنهاهم الله تعالى عن ذلك لأنهم كانوا يفعلونه تطيراً. وفي محاولتهم لإعطاء أبعاد أكثر لسبب ربط القضيتين معا؛ أي السؤال عن الأهلّة وعن دخول البيوت من ظهورها، فقد ذهب بعض المفسّرين إلى تأويلها على عدم حمل المسائل عكسيا من خلال إتّباع آراء الجاهلين، ولكن اتقوا واسألوا العلماء، وذلك مثلما يقال في التعبير المتعارف عليه أتيت الأمر من بابه أي على وجهه الصائب كما هو الحال في عدم إخراج الحج عن وقته بتأخيره أو تقديمه في حالات النسيء فيحرمون الحلال ويحلون الحرام وهذه هي قمّة مخالفة الأمور والعدول عن الطريق الصحيح، وإتيانها كناية عن التمسك بالطريق الصحيح.(1)

(1) تفسير الطبري ج2 ص107. تفسير ابن كثير) ج1 ص395. تفسير القرطبي ج2 ص343. تفسير الرازي ج5 ص280. تفسير الجلالين ص39. تفسير الألوسي (روح المعاني) ج2 ص71.

كيف تحمل هذه الآية لتكون في خدمة البشرية جمعاء؟

هذه الآية لها أهمية عظمى في باب الأخلاق وفي احترام الإنسان لنفسه ومن ثمّة احترامه لغيره عن طريق تزويده بالسلوك السّليم في التعامل مع النفس ومع الآخرين ونحن هنا بصدد الوقوف أمام حالة خاصّة يراد بها التعميم أي معالجة الحالة وإعطاء حلول لها وتعميم هذه الحلول على باقي الحالات المشابهة. والسّؤال المطروح مبدئيا على التساؤل في حدّ ذاته هو لماذا النّهي عن دخول البيوت من ظهورها في زمن الحجّ بالذّات وليس في زمن آخر؟ هل السبب الرئيس حقّا هو كما يراه المفسّرون أم هنالك منطلقات وتوجّهات أخرى يريد الله سبحانه وتعالى ومن ثمّة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم الإشارة إليها ومعالجتها كي لا يفهم الأمر على غير وضعه. فنحن هنا في إطار الحديث عن ناس وهم في الحج ولذلك جاءت أسبقية الناس على الحج في التركيب اللغوي للآية، أضف إلى ذلك فالحج هو موعد دِينِيّ دُنيَوِيّ يلتقي فيه كلّ النّاس من الأمم جميعها ويأتون من بقاع مختلفة{وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ }[1] وبذلك فليس كلّ الحاضرين في ذلك المكان يعرفون تلك الظّاهرة المتمثّلة في دخول النّاس البيوت من ظهورها ارتباطا بذلك الاعتقاد، وحتّى من النّاحية العملية والموقف أو الوضع العام فالشخص إذا دخل إلى منزله من ظهره فهو يجعل المقرّبين منه يشكّون في الأمر فما بالك إذا شوهد من طرف آخرين غريبين عن المكان تماما فأبواب التأويل تزداد بين السرقة وأفعال أخرى قد تصنع الشكّ حتّى في شرف أصحاب المنزل في حدّ ذاته ولذلك فهذه الآية تدخل في باب اتقاء الشبهات ما ظهر منها وما بطن فالحلال بيّن والحرام بيّن كما يقول

تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل) ج1 ص474.أحكام القرآن الكريم للجصّاص ج1 ص249.أحكام القرآن للشافعي ج1 ص103.

(1) سورة لاالحج 27.

الرسول عليه الصلاة والسلام وبينهما مشبّهات لا يعلمها كثير من الناس فليتّقي الإنسان هذه المشبّهات ليكون طاهرا في دينه وعرضه.[1]

فنحن إذا سلّمنا بأنّ هذه الآية جاءت لمعالجة حالة وفقط محدّدة بمكان معيّن هو شبه الجزيرة العربية وزمان يتمثّل في زمن الرسول صلّى الله عليه وسلّم كذلك فهذا يعدّ بمثابة تحجيم وتقزيم وتحديد لفعالية النصّ من علاقته بالزمان والمكان، وهذا غير مقبول منطقيا وعلميا وعمليا ونحن بصدد الحديث عن نصّ عالمي جاء للبشرية جمعاء لأنّ النصّ القرآني صالح لكلّ زمان ومكان والدليل على ذلك أنّه هو الرسالة وهو المعجزة.[2]

{يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}(البقرة215)

يرى المفسّرون بأنّ هذه الآية فيها إشارة إلى المؤمنين عند تساؤلهم عن الأشياء التي ينفقونها من أموالهم فيتصدقون بها والوجوه التي ينفقون فيها، وأين يضعون ما لزم إنفاقه، وعلى من ينفقونها في نفقتهم وصدقتهم هذه؟ ويقال أنّ

(1) صحيح مسلم ج3 ص1221.سنن الترمذي ج3 ص511.سنن الدارمي ج2 ص319-صحيح البخاري ج2 ص723-صحيح ابن حبان ج2 ص497-سنن النسائي ج8 ص230-سنن البيهقي ج5 ص264-شرح النووي على مسلم ج1 ص27-سنن ابن ماجه ج2 ص1318.شرح العمدة ج2 ص384.المدوّنة الكبرىج1 ص204.المستدرك على الصحيحين ج1 ص584.مغني المحتاج ج2 ص105.

(2) ينظر فيما يتعلّق عالمية النص القرآني كتاب:المعجزة الكبرى لعدنان الرّفاعي دار الخير دمشق الطبعة الأولى 2006.

الآية نزلت في رجل مسن كبير وصل إلى عمر متقدّم من حياته وله مال وفير فسأل الرّسول عليه الصلاة والسلام بماذا يتصدّق وعلى من ينفق.[1]

ونلاحظ دائما على المفسّرين محاولتهم حصر الحالة في حدث معيّن لكن الأصل هو إعطاء أبعاد لا متناهية للأوامر الإلهية، فالغاية من التساؤل هي المعرفة والتعلّم وحسن التدبّر والتصرّف وليس الغاية منه الجدال والتعجيز، والسؤال كان بـ{ماذا}[2] أي عن الأشياء التي ينفقونها ما طبيعتها أي ما هي المواد التي تنفق، لكن الإجابة كانت عن ممن هم مخصوصون بالإنفاق، وهذا يدل والله أعلم على أنّ أي شيء خيّر يقدّم ابتغاء مرضاة الله فهو مقبول مهما كان نوعه أو شكله المهم أن يكون شيئا خيّرا أمّا الإشكال الحقيقي فيكمن في الجهة التي ستستفيد من هذه النفقات الخيّرة، والأمر موضّح في الآية انطلاقا من ترتيب الكلمات فيها فالأسبقية والأحقيّة في النفقة تكون للوالدين والجدير بالذكر أنّ الوالدين لهما أهمية قصوى في توصيات الله سبحانه وتعالى لكل أنبيائه {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً * وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً }[3]وقد يكون المرء في بعض الأحيان غير مدرك

---

(1) تفسير الطبري ج2 ص199.فسير ابن كثير-ج1 ص428. تفسير القرطبي ج3ص36. تفسير الرازي ج5 ص280. تفسير الألوسي ج2 ص105.فتح القدير ج1 ص216. أحكام القرآن للجصّاص ج1 ص399.

(2) ينظر فيما يخص "ماذا" كتاب: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري تحقيق: د. مازن المبارك/محمد علي حمد الله دار الفكر بيروت الطبعة السادسة 1985. شرح قطر الندى لابن هشام الأنصاري تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد القاهرة الطبعة 11 1385هـ. سرّ صناعة الإعراب لأبي الفتح عثمان ابن جنّي تحقيق: د.حسن هنداوي دار الفكر دمشق الطبعة الأولى 1985.

(3) الإسراء 23،24.

لحدود الإنفاق حتّى إنّه قد يضيّعا لعدم معرفته وجهله بسبلها. وقد يوجّه في بعض الأحيان اهتمامه للآخرين خارج قرابته فيتوجّه بالإنفاق عليهم بالرّغم من حاجة المقرّبين منه إليه والسبب راجع إلى كون الإنفاق على من هم خارج إطار قرابته يظهره ويجعل مكانته مرتفعة وقد يجلب له ذلك التقدير والاحترام وذلك كي يقال عنه بأنّه من المنفقين وهذا ما قد لا يتحصّل عليه إذا أنفق على والديه فجاءت هذه الآية لسدّ هذا الباب.

{يَسْأَلُونَكَ عَنْ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنْ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (البقرة217)

هو سؤال يرى المفسّرون فيه أنه كان لأصحاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم حيث أرادوا من خلاله معرفة طرق السلوك والتصرّف بشكل مسالم وذلك في شهر السلم الشهر الحرام فيما يخص القتال فيه وذلك بالرجوع إلى حادثة قتل وقعت في شهر يحرم فيه القتال وهو شهر رجب لأنّ العرب كانت لا تحمل فيه السيوف وتقاتل فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه فيه فلا يهيجه تعظيما له. وسبب طرح السؤال بحسب ما جاء في التفاسير هو أنّ رجلا من المسلمين قتل رجلا من الكفّار فاغتاظوا لذلك وقالوا لهم: صنعتم ما لم تؤمروا به وقاتلتم في الشهر الحرام ولم تؤمروا بقتال، وقالت قريش: قد استحلّ محمد وأصحابه الشهر الحرام فسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا. واستغلّ اليهود الحدث لتأجيج نار الفتنة وزرع العداء أكثر.[1]

(1) تفسير الطبري ج2 ص201. تفسير ابن كثير ج2 ص428. تفسير القرطبي ج3 ص40.تفسير الألوسي ج2 ص107.أحكام القرآن للجصاص ج1 ص401.تفسير الرازي ج 6 ص386.زاد المسير ج1 ص236.

الشيء الذي يمكن الإقرار به هو أنّ هذه الآية تزامن نزولها مع تلك الحادثة لكن يجب أن يفك ارتباط هذه الآية بعاملي الزّمان والمكان في إطار قراءتها على دوام فعاليتها ومن ثمّة فهذا السؤال ارتاب فيه أصحابه فراودهم الشك في مفهوم القتال متى وكيف ومع من يكون؟ والحديث هنا يخص الشهر الحرام والذي سمي كذلك لأنّه يحرم فيه القتال خطاب فيما يبدو خاص بدلالة عامة فلماذا اختيرت هذه الأشهر لتكون حرما أم أنّ ذلك له علاقة بالعرب في حدّ ذاتهم بتفاهمهم في إيقاف القتال في أشهر معيّنة والدليل على ذلك هو نقضهم لهذه الأيام بنسيئهم{إِنَّمَا ٱلنَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِئُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَٱللَّهُ لاَ يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ }[1] فهل الإنسان هو الذي يتدخّل بتصرّفاته فيجعل هذا الشهر حراما والآخر لا بحسب ما يخدم أغراضه ولذلك فهـو يغيّر كيف يشاء؟ ومن ثمّة فالحكمة من هذه الآية تكمن في أنّ الإنسان يكون دائما متّصفا بالعفاف والكرامة والوفاء كلّما حافظ على عهوده ومواثيقه التي سنّها في مصالحاته وتحالفاته مع من حوله بعدم الاعتداء ويجب أن يداوم على ذلك وهو ما أمر الله به في قوله: {أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ}[2] وفي قوله:{أَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ}[3] لكن إذا كان قد تعرّض لما يسيء له ويهدّد أمنه وحياته الجسدية والنفسية والفكرية فواجب عليه أن يردّ ذلك التهديد {فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ }[4]وهذا هو المقصود من هذه الآية كي لا يبقى تفسيرها مرتبطا بسياق يرجع إلى موقف معين.

(1) التوبة 37.

(2) المائدة 1.

(3) البقرة 40.

(4) البقرة194.

{يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} (البقرة219)

هذه الآية جاءت دراستها عند بعض المفسّرين في باب نقاشهم عن الخمر عن حقيقتها وماهيتها وعن حالها بين ضررها والانتفاع بها ويرون بأنّ أمر التساؤل هذا يرجع إلى عمر رضي الله عنه الذي كان في دعائه يقول اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. والخمر من النّاحية اللّغوية معناه التغطية وقد تحدّث المفسّرون كثيرا عن آثامها وعن منافعها فكانت من جملة ما ذكروا في آثامها كونها تنقص من دين من يشربها فتعطّله عن أداء واجباته من صلوات وذكره لله وتذهب ماله وتزيل عقله فيؤذي النّاس بما يصدره من مخاصمة ومشاتمة وقول فاحشة وزور. أمّا منافعه بحسب المفسّرين دائما فتكمن في لذته وثمنه، وكلّها دنيوية من حيث إن فيها نفع البدن كتسهيل هضم الطعـام وإخراج الفضلات وتشحيذ بعض الأذهان وتقوّي الضعف، وتعين على الباء، وتسخي البخيل، وتشجع الجبان، وتصفي اللون وغيرها. أمّا عن الميسر فيرى المفسّرون بأنّه مأخوذ من اليَسَر وهو القمار الذي كان يمارسه الجاهليون حيث يخاطرون على أهلهم ومالهم. وكذلك يطلق الميسر على عديد الألعاب التي يمارسها العرب والتي فيها ربح وخسارة. أمّا عن آثامه فهي منع الحق وإظهار الظلم، ومنفعته فيما يربحه الإنسان من نقود بغير كدّ ولا تعب فينفقها على نفسه أو عياله ويقال كذلك أنّه كان من ميسر أهل الجاهلية بيع اللحم بالشاة والشاتين.[1] أضف إلى ذلك فقد أثبتت الدراسات النفسية والاجتماعية والطبيّة خطورة تناول هذه المادة على كلّ المستويات لما

(1) الأحكام لابن حزم ج7 ص482.تفسير الطبري ج2 ص208.تفسير ابن كثير ج1 ص433. تفسير القرطبي ج3 ص51.تفسير الألوسي ج2 ص111.تفسير الرازي ج6 ص395.

تسببه من تبذير للأموال وتفكيك للأسر وتدمير للجسم بواسطة الأمراض كالسرطان وغيرها.[1]

لكن ما هي العلاقة التي تربط الخمر بالميسر حتّى جاء التساؤل عنهما مقترنين معا؟ فهذه الآية هي من الآيات التي فيها توضيح والملاحظ أنّ الخمر في الآية جاءت بعده كلمة ميسر وهذا ما يوحي بوجود علاقة مباشرة بين الشيئين؛ وحتّى على أرض الواقع فأغلب المناطق التي هي مخصّصة لشرب الخمر تجدها ممتلئة بشتّى أشكال المراهنات حتّى أنّ الرجل يراهن بكل ما يمتلك بغرض الحصول على شرابه ويمكننا القول باختصار إنّ الإنسان عند تخمّر عقله يصبح ميسّرا لكلّ الأمور آخذ لها دون إعمال عقله لأنّه فقده بفعل هذه الخمر.

{وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنْ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}(البقرة220)

يرى المفسّرون أنّ هذه الآية نزلت لتصحّح الأخطاء التي وقع فيها من كان لديهم أيتام في منازلهم وذلك بعد أن أساؤوا فهم معنى {وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[2] فعزلوا ممتلكات اليتامى واجتنبوا مخالطتهم فأصبحوا لا يشاركونهم لا في طعام ولا في شراب وتشاءموا بضمّ أموال اليتامى إلى أموالهم فاختلّت مصالح اليتامى وساءت معيشتهم فثقل ذلك على الناس وبقوا متحيرين إن خالطوهم وتولوا أمر أموالهم استعدوا للوعيد الشديد، وإن تركوا وأعرضوا عنهم، اختلت معيشتهم، فتحيّر النّاس عند ذلك.[3]

---

(1) ينظر حكمة الإسلام في تحريم الخمر (دراسة اجتماعية نفسية) د.مالك بدري المعهد العالمي للفكر الإسلامي الطبعة الأولى 1416-1996.

(2) الأنعام:251

(3) تفسير الطبري ج2ص208.تفسير ابن كثير ج1 ص433. تفسير القرطبي ج3 ص62. تفسير الألوسي ج2 ص116. تفسير الرازي ج6 ص 404.أحكام القرآن للحصاص ج2 ص12.زاد

وفي هذه الآية إشارة إلى الطريقة المثلى التي يتعامل بها الإنسان مع اليتيم إذا كان يكفله وهي كلّها دعوة إلى التقرّب منه ومخالطته والعمل على إصلاح أموره وأحواله لتعويضه عن ذلك الحنان المفقود بفقدان مفهوم الأبوّة في حياته والكل يعلم دور الوالدين الرئيس وأهميته في تنشئة الأبناء على أحسن وجه[1] والله هو الوحيد الذي يعلم نيّة كلّ قائم على أمر اليتيم إن كانت صالحة أم لا، لأنّه في بعض الأحيان نسمع اتهامات موجّهة من طرف الناس بكلام غير لائق على من يكفل اليتامى مفاده أنّهم يأكلون أموالهم بالباطل وهذا ما أدى بأكثرهم إلى الابتعاد عن القيام بشؤون اليتامى خوفا من سماع كلام جارح هم في غنى عن سماعه فأمر الله بمخالطة اليتامى وعـدم الاكتراث بأقوال الناس لأنّه هو الوحيد الذي يعلم المفسد من المصلح وهو الوحيد الذي له القدرة على توسيع أبواب الخير وتيسرها أو على تضييقها وإعطاء توضيحات بشأنها {وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَٱدْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيباً}[2].

{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}(البقرة222)

المسير ج1 ص243. فتح القدير ج1 ص222.صحيح البخاري ج3 ص1018.فتح الباري ج5 ص395.سنن أبي داوود ج3 ص114.

(1) ينظر عالم المعرفة العدد 180(العلاج السلوكي للطفل) تأليف:عبد الستّار إبراهيم د.عبد العزيز بن عبد الله الدخيل د.رضوان إبراهيم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت 1993.

(2) النساء 6.

الحيض لغة الدم الخارج من الرحم على وصف مخصوص في وقت مخصوص وهو يرجع إلى قولهم حاض السيل إذا فاض ومنه الحوض لسيلان الماء منه أو فيه. [1]

أمّا عن سبب هذا التساؤل فالمفسّرون يرون بأنّه يرتبط بتلك العادة التي كان يمارسها أهل الجاهلية حيث كانوا لا يسكنون مع الحائض في بيت، ولا يأكلون ولا يشربون معها في إناء وقيل هي من العادات التي عرفت عند اليهود والمجوس الذين كانوا يبالغون في التباعد عن المرأة حال حيضها، أمّا النّصارى فكانوا يجامعونهن، ولا يبالون بالحيض فعرّفهم الله بهذه الآية أن الذي عليهم في أيام حيض نسائهم أن يجتنبوا جماعهنّ فقط كما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يفعل حيث كان يجعل بينه وبين زوجه قطعة قماش لا تتجاوز الركبة وكان خطابه واضحا بهذا الشأن «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» وقد أرجع المفسّرون أذاه لنتن ريحه وقذارته ونجاسته.[2]

والحيض ظاهرة علمية تتعلّق بالإنسان وهي موجودة معه منذ القديم والملاحظ أنّه لم يعرف طريقة تعامله معها لذلك جاء توضيحا فيَ هذه الآية. ولقد توصّل العلم إلى أن للمحيض أضرار ليس على المرأة وحدها ولكن على الرجل كذلك فالدم المتخثّر يعتبر بيئة محفّزة على تكاثر الجراثيم وهذا ما يؤدّي إلى ظهور التهابات في مناطق مختلفة من الجهاز التناسلي عند الإنسان وقد يصل الأمر إلى العقم. هذا من الناحية البيولوجية أمّا من الناحية النفسية فحالة المرأة تتجه إلى فتور في رغبتها وإقبالها على ممارسة الجماع فتصبح بذلك متقلبة المزاج سريعة الاهتياج قليلة الاحتمال كما أن حالتها العقلية والفكرية تكون في

(1) لسان العرب ج7 ص142. المفردات في غريب القرآن ج1 ص136.

(2) تفسير الطبري- ج2 ص224. تفسير ابن كثير ج1 ص438.تفسير القرطبي-ج3 ص80.تفسير الألوسي ج2 ص120.تفسير الرازي ج 6 ص414.

أدنى مستوى لها ومن ثمّة يمكن القول بأنّ كلّ الظروف جسديا ونفسيا ودينيا غير مواتية لعملية الجماع مطلقا.[1]

{يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}(المائدة4)

هذا السؤال جاء بعد تحريم أكل الحيوانات الميتة والحيوانات التي تتعرّض للخنق كما يفعل النصارى وذلك لما فيها من الخبائث الضارة لمتناولها إما في بدنه أو في دينه أو فيهما[2] فوضّح الله سبحانه وتعالى الأمر بأنّ كلّ الطعام طيّب إذا وافق شرع الله الذي شرعه لعباده منذ أوّل وجود لهم على هذه الأرض كلّ الطعام كان حلاّ لبني إسرائيل إلاّ ما حرّم إسرائيل على نفسه فالرسول صلّى الله عليه وسلّم لا يخالف سابقيه ممن كانوا يعملون بالوحي الإلهي. إضافة على ذلك فالإنسان كان في بدايات وجوده على هذه الأرض ولا يزال معتمدا على الصيد للحصول على قوت يومه لكن للصيد قواعد تحدّده أوّلها أن يكون الشيء المصطاد أُشيرَ إليه أي جعل له الصائد علامة وأن يتعرّض هذا الصيد للجرح وهذا ما يساعد على خروج الدم سواء أكان هذا الصيد جرح بأداة حادة كالسّهام والرّماح أو عن طريق حيوانات جارحة كالصّقور والكلاب والتي أشار إليها بلفظ مكلّبين شريطة أن تكون هذه الحيوانات المكلّبة مدرّبة ومعلّمة على الصيد ويمسك الحيوان المشار إليه وليس أي طريدة أخرى يجدها في طريقه يحضرها فهذا غير مقبول.

---

(1) ينظر في هذا المجال كتاب علم النفس التربوي (التربية الجنسيّة)- سيرل بيبي- ترجمة د.محمد رفعت رمضان و د. نجيب اسكندر إبراهيم راجعه: د. إسحاق رمزي- دار المعارف مصر1968ص62.

(2) تفسير ابن كثير ج3 ص28.تفسير القرطبي ج6 ص63.تفسير الرازي ج11 ص290. تفسير الكشّاف آية 4 المائدة.

{يَسْأَلُونَكَ عَنْ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}(الأعراف187)

دائما مع آراء المفسّرين فهذا من الأسئلة التي وجّهت للرّسول عليه الصلاة والسلام من طرف اليهود والمشركين حيث كانت غايتهم هي إحراجه ومن ثمّة الاستهزاء به بعد أن يظهر عجزه ويقرّ به وذلك انطلاقا من محاولة اختبار نبوّته بمعرفته للساعة أي القيامة وقالوا ذلك لفرط الإنكار عندهم استبعادا لوقوعها وتكذيبا بوجودها، ومعنى ثقلت في السماوات والأرض خفي علمها وكبر مجيئها وعظم شأنها وعلا وثقل وقوعها على من فيهما فالكل يخافونها محسنهم ومسيئهم وكل ما علمه خفي فهو ثقيل على الفؤاد. والحفي العالم بالشيء والمستقصي في السؤال وقد ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ معنى حفي قد يشير إلى مفهوم الصداقة وحبّه لهذا السؤال وإعجابه وفرحه به وكأنّه ينتظر منهم طرح هذا السؤال وهو مجيبهم.[1]

والشيء الذي يمكن إضافته في هذا المجال هو أنّ السؤال كان عن الساعة زمانها ومكان وقوعها وأردت الحديث عن سبب اقتران بعض الكلمات مع بعضها البعض في مواقع إعجاز القرآن الكريم وفي هذه الآية أردت التركيز على استعمال {يجلّيها} مع {حفي} وأصلُ الجلو عند اللغويين الكشف الظاهر استنادا إلى قولهم جلوت العروس والسيف والسّماء جلواء بعد زوال الغيوم عنها.[2] والتجلّي حقيقة هو الظهور والانكشاف لكن كيف هي طبيعة هذا الظهور الذي يعبّر عنه هذا اللفظ؟ التجلّي هو الظهور التدريجي وليس الظهور دفعة واحدة كما هو الحال في

---

(1) تفسير الطبري ج9 ص141. تفسير القرطبي ج7/335-336ج19-209. تفسير ابن كثيرج2ص272. زاد المسير ج3 ص297 .فتح القدير ج2 ص 273

(2) المفردات في غريب القرآن ج1 ص96. لسان العرب ج14 ص150.

تجلّي الشمس ولذلك تسمّى السّماء جلواء لذهاب السحب عنها تدريجيا ولأحسن مثال على استعمال هذا اللفظ للدلالة على الظهور التدريجي قول الشاعر:

وجَلا السُّيُولُ عَنِ الطُّلُولِ كَأَنَّهَا × زُبُرٌ تُجِدُّ مُتونَهـــا أَقْلامُهَا.[1]

فالشاعر هنا بصدد الحديث عن إعادة ظهور آثار الدّيار تدريجيا بعد ما تغطّت بفعل الطبيعة وكأنّها كتابة أمّحت وجدّدت كتابتها تدريجيا ومن هذا المنطلق فيجلّيها معناه يظهرها تدريجيا وهو ما يوحي مبدئيا بقدوم السّاعة بطريقة تدريجية لا يمكن للإنسان أن يحسّ بها حتّى تأخذه بغتة وللسّاعة علامات.

واللّفظ الثّاني الذي يظهر معه بعض اختلاف بين المفسّرين في تحديد دلالته هو {حفي} ويمكن معالجة هذا اللفظ بإرجاعه إلى باب الترقّي في مخارج الأصوات بين صوتين لهما الصورة الخطيّة نفسها والفرق بينهما نقطة الإعجام [حفي | خفي] والاختلاف موجود على مستوى صوتي (الحاء و الخاء) أي من باب الإبدال والحفي كما تصفه قواميس اللغة له دلالات تدور كلّها حول باب الإحداق والتطويق والاستدارة والطواف بالشيء.[2] لكن إذا أرجعناه إلى مجاله الصوتي نجده ينتمي إلى باب الإخفاء والحاء أسبق في مخرجها على الخاء ومن ثمّة فاللفظ يزيد قوّة كلّما قرب مخرجه من الفمّ كمثال على ذلك لفظي (مدّ | مطّ) الطاء أرفع من الدال ولا يمكن الوصول إلى (المطّ) حتّى نمرّ بمرحلة (المدّ) وكذلك الأمر مع (الحفي) و(الخفي) فالخاء أرفع من الحاء[3] ومن ثمّة فالحفي

---

[1] المعلّقات العشر وأخبار قائليها ص81.شرح المعلّقات السبع ص91.

(2) لسان العرب ج9 ص49.

(3) ينظر فيما يخص هذه الخصائص كتاب الخصائص لأبي الفتح عثمان ابن جنّي تحقيق: محمد علي النجّار-عالم الكتب بيروت وكتاب سرّ صناعة الإعراب لأبي الفتح عثمان بن جنّي تحقيق:د.حسن هنداوي-دار العلم دمشق الطبعة الأولى1985 والمزهر في علوم اللغة

أقلّ قوّة من الخفي من حيث التغطية والستر وقد استعمل الرسول عليه الصلاة والسلام هذا اللّفظ كثيرا في وصفه لاهتمام الملائكة بأهل الذكر حيث يقول بأنّهم يحفّونهم بأجنحتهم إلى السّماء الدّنيا وأنّهم يقعدون في مجالس الذكر ويحفّ بعضهم بعضا حتّى يملئوا ما بينهم وبين السّماء الدنيا.[1] وانطلاقا من هذه الاستعمالات يمكن القول بأنّ معنى كلمة حفي عنها هو كونه يعلمها ويغطّيها عنهم بشيء من اللّحاف أو القماش.

{يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْأَنْفَالِ قُلْ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}(الأنفال1)

السؤال هنا كان عن الأنفال هذه الكلمة التي تسمّى بها سورة كاملة من القرآن الكريم وناقشتها علوم الحديث بإسهاب ويرى المفسّرون بأنّ هذه الآية نزلت حينما تشاجر أهل بدر في كيفية تقسيم الغنائم التي جمعوها بعد انتهاء المعركة مع المشركين أي بعد القتال وقيل سميت الغنائم أنفالا لأن المسلمين فضلوا بها على سائر الأمم الذين لم تحل لهم الغنائم.[2] وأصل النفل في معناه اللغوي الزيادة أي ما زاد على الأصل ولذلك سمّيت صلاة التطوّع نافلة لأنها زيادة أجر لهم على ما كتب لهم من ثواب ما فرض عليهم ويقال كذلك تنفل فلان على أصحابه إذا أخذ أكثر مما أخذوا عند الغنيمة وكانت له الأفضلية.[3] والجدير

وأنواعها لجلال الدين السيوطي تحقيق: فؤاد علي منصور-دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى 1998.

[1] صحيح مسلم ج17 ص13.صحيح ابن حبّان ج1 ص204.الترغيب والترهيب ج2 ص258.

(2) تفسير الطبري ج9 ص170.تفسير القرطبي ج8 ص2.تفسير ابن كثير ج2 ص285.زاد المسير ج3 ص316.فتح القدير ج2 ص283.صحيح البخاري ج4 ص1703.صحيح مسلم ج3 ص1367.سنن الترمذي ج5 ص268.شرح الزرقاني ج3 ص32.فتح الباري ج6 ص218.شرح النووي على مسلم ج12 ص53.سنن البيهقي ج9 ص57.

(3) لسان العرب ج11 ص670-671.

بالذكر في هذا المجال أنّ النظرة الجاهلية للإنسان فيها حبّ التملّك ولو على حساب الآخر ويمكن أن يصلّ التفكير في بعض الأحيان إلى درجة الفردانيه بالرغم من أنّ القتال تمّ جماعيا وهي نظرة يمكن تجسيدها في قول الشاعر:

ونخوض غمـرة كل يوم كريهة × تـردي النفوس وغنمها للأشجع[1]

وهذا ما يدلّ بأنّ التصرّف في الغنائم يتمّ بحسب الشّجاعة فالأشجع هو من له الحصّة الأكبر.فجاءت الإشارة في هذه الآية إلى أنّه بعد تقسيم الغنائم بطريقة عادلة فالأموال الزائدة أو الفائضة هي لبيت مال المسلمين الذي تسيّره أوامر الله ورسوله.

{وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} (الإسراء85)

هو من الأسئلة التي يقال أنّها من صنيع أهل الكتاب والسائلون هم قريش لمعرفة حقيقة نبوّة الرسول صلّى الله عليه وسلّم فقالت لهم اليهود سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح فإن أخبركم عن اثنين وأمسك عن واحدة فهو نبي فأخبرهم خبر أصحاب الكهف وخبر ذي القرنين وقال في الروح قل الروح من أمر ربي أي من الأمور التي لا يعلمها إلا الله.

وسؤال الروح هذا جاء في إطار البحث عن علاقتها بالجسد في الحياة عن ماهيتها وهل لها مكان معيّن في الجسم وما هو موقعها من الجسد إن كانت موجودة وكيف تمتزج معه وكيف يمكن التحكّم فيها وهل هي قديمة أم حادثة. ثمّ جاء البحث عن مآلها بعد الموت هل تبقى مع الجسد أم تفارقه، وإذا فارقته هل تبقى بعد انفصالها أم تفنى وما هو المكان الذي تذهب إليه سألوا حتّى طبيعة عذابها. وقد اختلف المفسّرون في مفهوم الروح المسئول وأعطوا افتراضات

(1) المنتظم .ص43.

متعدّدة بين كونه جبريل أو عيسى عليه السلام أو ذلك الملك الذي يوصف في قول ينسب إلى علي رضي الله عنه والذي يُرى فيه بأنّه مَلَكٌ من الملائكة له سبعون ألف وجه أو له أحد عشر ألف جناح وألف وجه يسبح الله إلى يوم القيامة.

فردّ عليهم الرسول عليه الصلاة والسلام بإجابة حافظ فيها على إجابة من سبقه من الأنبياء بالإشارة إلى أنّها أمر عظيم وشأن كبير من أمر الله تعالى مبهما له وتاركا تفصيله ليعرف الإنسان على القطع عجزه عن علم حقيقة نفسه مع العلم بوجودها وإذا كان الإنسان في معرفة نفسه هكذا كان بعجزه عن إدراك حقيقة الحق أولى وحكمة ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له دلالة على أنه عن إدراك خالقه أعجز قوله تعالى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا.[1]

والظاهر أنّ أهل الكتاب أرادوا الحصول على العلم والمعرفة الإضافية وعلى ما يبدو فهم سألوا أنبيائهم عن الروح كما سئلوا عن أشياء كثيرة قبل مجيء الرّسول عليه الصلاة والسلام وخاصة مع موسى عليه السلام حيث بلغوا معه في تساؤلاتهم أقصى حدودها{يَسْأَلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰباً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذٰلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً }[2] ولم يحصلوا على إجابة شافية فظنّوا بأنّه يمكنهم الحصول عليها بسؤالهم للرسول عليه الصلاة والسلام ومن ثمّة تحصيلهم لعلم جديد كان غائبا عنهم لطالما بحثوا عنه في رحلة رفضهم لمفهوم الموت وتغنّيهم بمبادئ الخلود وذلك بعدما تحكّموا فيما يفني الجسم وعملوا على إيجاد أدوائه لكن لم يستطيعوا معرفة خبايا الروح.

---

(1) تفسير الطبري ج15 ص154.أحكام القرآن للجصاص ج5 ص33.القرطبي ج10 ص324.ابن كثير ج3 ص61.زاد المسير ج5 ص81.فتح القدير ج3 ص254.إعانة الطالبين ج2 ص106.شرح زيد ابن رسلان ص18.الفواكه الدواني ج1 ص97.صحيح مسلم ج4 ص2152.صحيح الترمذي ج5 ص304.فتح الباري ج8 ص401.صحيح البخاري ج4 ص1749.صحيح ابن حبان ج1 ص300.السنن النسائي ج6 ص383.

(2) النساء 351.

{وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا}(الكهف83)

هذا السؤال كان عن شخصية من شخصيات قصص القرآن الكريم، وبحسب الروايات فهو من الأسئلة التي كان أهل الكتاب طرفا في صياغتها لمعرفة نبوّة الرسول عليه الصلاة والسلام وكان المشركون هم أداة التساؤل فأرادوا معرفة قصة ذي القرنين ما كان شأنه؟ ولماذا سمّي بهذا الاسم؟ هل هو من الأنبياء أم من الملائكة؟ ما هي الفترة الزمنية التي عاش فيها؟ وفي أي مكان كان؟ فكانت تلك الأخبار عنه حيث أنّه كان عبدا صالحا ناصحا دعا قومه إلى الله تعالى ونصحهم، وقد آتاه الله ما لم يؤت غيره فسهّل عليه كلّ الأمور ومدّ له الأسباب حتى تملّك الأرض والبلاد مشرقا ومغربا. فكان ملكا من ملوك الأرض ويقال أنّ الأرض لم يملكها كلها إلا أربعة: مسلمان وكافران فأمّا المسلمان فسليمان بن داود وذو القرنين وأما الكافران فبخت نصر والذي حاج إبراهيم في ربه واختلف المفسّرون في الزمن الذي عاش فيه فهنالك من يرى بأنّه عايش بناء إبراهيم وإسماعيل لقواعد البيت ومنهم من قال بأزمنة أخرى.

أمّا عن السبب الذي لأجله لقّب بذي القرنين ففيه أقوال أحدها أنه دعا قومه إلى الله تعالى فضربوه على قرنه فهلك فغبر زمانا ثم بعثه الله فدعاهم إلى الله فضربوه على قرنه الآخر فهلك فذانك قرناه. والثاني أنه سمي بذي القرنين لأنه سار إلى مغرب الشمس وإلى مطلعها والثالث لأن صفحتي رأسه ينفذ من نحاس والرابع لأنه رأى في المنام كأنه امتد من السماء إلى الأرض وأخذ بقرني الشمس فقص ذلك على قومه فسمي الخامس لأنه ملك الروم وفارس والسادس لأنه كان في رأسه شبه القرنين والسابع لأنه كانت له ضفيرتان من شعر والثامن لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت ذوي شرف والتاسع لأنه انقرض في زمانه قرنان من

الناس وهو حي والعاشر لأنه سلك الظلمة والنور.[1] وبقيت فرضيات اسمه هل هو الإسكندر أم لا والمكان الذي ينتسب إليه بين الروم ومصر قائمة إلى يومنا هذا والمحيّر في فرضيات التسمية والمكان هذه أنّ الرسول عليه الصلاة والسلام يقول بأنّه ملك الأرض كلّها وبعض التفاسير تريد تحديد المكان في مصر التي يقال بأنّه مرّ بها وشيّد فيها مدينة الإسكندرية التي سمّيت باسمه فهل عظمة الأمم تكتسب بهذه الطريقة؟

{وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا}(طه105)

هذا هو آخر سؤال وكان عن حال الجبال يوم القيامة والملاحظ أنّه السؤال الوحيد الذي جاء فيه الأمر في {قل} بالفاء {فقل} والغرض اللغوي من الفاء هو التعقيب السريع المباشر[2] أمّا غرضها الدلالي بحسب آراء المفسّرين في مقارنتهم لها بالآيات الأخرى هو أن تلك أسئلة تقدمت سألوا عنها النبي صلى الله عليه وسلم فجاء الجواب عقب السؤال فلذلك كان بغير فاء وهذا سؤال لم يسألوه عنه بعد فعندما يسألونك أجب مباشرة دون تفكير سينسفها ربّي أي كما رأى

---

(1) تفسير الطبري ج16 ص8.تفسير القرطبي ج11 ص45.تفسير ابن كثير ج1 ص180.زاد المسير ج5 ص183.فتح القديرج3 ص309.تفسير الرازي ج21 ص495. مصنّف ابن أبي شيبة ج6 ص346.فتح الباري ج6 ص383.

(2) الفصول المفيدة في الواو المزيدة صلاح الدين العلائي الدمشقي تحقيق د. حسن موسى الشاعر دار البشير عمان الطبعة الأولى 1990 ص 95. المفصّل في صنعة الإعراب محمود بن عمر الزمخشري ت: د. علي بو ملحم دار الهلال بيروت ط1 1993 ص404. أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ابن هشام دار الجيل بيروت ط5 1979ج3 ص361. الانصاف في مسائل الخلاف أبي سعيد الأنباري دار الفكر دمشق ج2 ص558. شرح شذور الذهب ابن هشام ت:عبد الغني الدقر الشركة المتحدة للتوزيع دمشق ط1 1984 ص578. حروف المعاني عبد الرحمان بن اسحاق الزجّاجي ت: د. علي توفيق الحمد مؤسسة الرسالة بيروت ط1 1984 ص39.

المفسّرون يقلعها قلعا من أصولها ثم يصيرها رملا يسيل سيلا ثم يصيرها كالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا وهكذا قال ولا يكون العهن من الصوف إلا المصبوغ ثم كالهباء المنثور.[1] لكن هل حقيقة تساؤل الناس عن الجبال كان بسبب أنّها ستكون حواجز تعيقهم يوم الجمع أو يوم الحشر الذي ذكره الله تعالى في قوله:{وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا}[2] أم أنّ هنالك سببا آخر له علاقة بنظرة الإنسان إلى الجبل، والجدير بالذكر أنّ الرّسول عليه الصلاة والسّلام انطلاقا مما جاء في القـــرآن الكريم أشار إلى دور الجبال في هذه الأرض حيث أنّ الله سبحانه وتعالى أرساها ليكون دورها هو خلق التوازن فيها كما في قوله تعالى {وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}[3] ثمّ أشار لنا وأوضح بأنّ هذه الأرض ستهتزّ وتزلزل وهو ما خلق التساؤل عن غياب فعالية الرواسي يوم القيامة. وهنالك فكرة أو صورة أخرى للجبل هي مرسومة في ذهن الإنسان منذ القديم، صورة مليئة بملامح العظمة والخوف والرهبة والجلد والصمود وحتّى التأبّد والخلود وعدم الزوال بالرغم من زوال كلّ شيء حيث قال فيه الشعر:

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلُّها فَمُقـامُهَا × بِمِنىً تَأَبَّدَ غَوْلُهـــا فَرِجَامُهَا.

فالغول والرّجام هما جبلان خلدا في المكان.[4]

وفي قصّة نوح عليه السّلام نجد أنّ ابنه أراد تحدّي قدرة الله في طوفانه باللّجوء إلى الجبل الذي كان يظنّ فيه ملاذه وخلاصه من قسوة الطبيعة بطوفانها

---

(1) الطبري ج16 ص211.القرطبي ج11 ص245.ابن كثيرج3 ص379.زاد المسير ج5 ص322تفسير الرازي ج22 ص103.

(2) الكهف 47.

(3) النحل 15.

(4) المعلّقات العشر وأخبار قائليها ص81.شرح المعلّقات السبع ص89.

حيث قال {سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنْ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنْ الْمُغْرَقِينَ}[1].

وتبقى هذه التساؤلات بمثابة دروس استفاد منها الإنسان ولا زال يستفيد حتى فنائه.

(1) هود 43.

دراسات أدبية